

قراءة في فلسفة الثورة الجزائرية للبخاري حمادة

الفدي فاطيمة الزهراء
جامعة وهران

الملخص:

إن الحديث عن إمكانية وجود خطاب فلسفي جزائري أصيل، يحيلنا إلى مجموعة متميزة من المفكرين والباحثين، الذين لم تمنعهم ازدواجية اللغة العربية/ الفرنسية من ترك بصماتهم وإثراء الفكر العربي، وتأكيد حضور هوية جزائرية ذات نفحات إسلامية، التي طالما حاول العدوان تجريدها وطمسها .

ضمن هذه النخبة نجد الأستاذ والمفكر "البوخاري حمادة" الذي حاول دراسة وفهم سيكولوجية الشعب الجزائري وراثته، من خلال طرح عدد من الدراسات، حيث يعتبر كتابه الموسوم بـ "فلسفة الثورة الجزائرية" واحدا من أهم الأعمال الفلسفية التي صدرت في الجزائر. يهدف هذا البحث إلى منح الثورة قدسيته وقيمتها من خلال الخروج عن المألوف، ونقل الثورة من البحث التاريخي الذي يهتم بالأسباب والنتائج، إلى البحث النقدي الذي يبحث في الأفكار المتوارية التي قادت الشعب إلى تحقيق الإستقلال.

الكلمات المفتاحية: الفلسفة؛ الثورة الجزائرية؛ بخاري حمادة.

إن الحديث عن إمكانية وجود خطاب فلسفي جزائري أصيل، يحيلنا إلى مجموعة متميزة من المفكرين والباحثين،

الذين لم تمنعهم ازدواجية اللغة العربية/ الفرنسية من ترك بصماتهم وإثراء الفكر العربي، وتأكيد حضور هوية جزائرية ذات نفحات إسلامية، التي طالما حاول العدوان تجريدها وطمسها .

ضمن هذه النخبة نجد الأستاذ والمفكر "البوخاري حمادة" الذي حاول دراسة وفهم سيكولوجية الشعب الجزائري وراثته، من خلال طرح عدد من الدراسات، حيث يعتبر كتابه الموسوم بـ "فلسفة الثورة الجزائرية" واحدا من أهم الأعمال الفلسفية التي صدرت في الجزائر، حيث يراجع فيه المفهوم الفلسفي للثورة، ويقارن بين هذا المفهوم ومفاهيم أخرى متداخلة فما بينها مثل الانقلاب والعصيان والتمرد...الخ.

يهدف هذا الكتاب إلى منح الثورة قدسيتها وقيمتها من خلال الخروج عن المؤلف، ونقل الثورة من البحث التاريخي الذي يهتم بالأسباب والنتائج، إلى البحث النقدي الذي يبحث في الأفكار المتوارية التي قادت الشعب إلى تحقيق الإستقلال. "فكيف سيطرح البخاري سؤاله عن هاته الفلسفة؟ وكيف أثرت ثقافته الإسلامية في بلورة فكرة نوفمبر فكرة الحرية والإستقلال التام؟".

1. حياته:

البخاري حمادة مفكر وأستاذ التعليم العالي بقسم الفلسفة جامعة وهران، من مواليد مدينة فيمار، وادي سوف جنوب الجزائر. بدأ مرحلته الابتدائية بمسقط رأسه، ثم انتقل الى تونس ليكمل بها تعليمه الإكمالي والثانوي، ثم سافر الى مصر ليوصل فيها مشواره الجامعي بجامعة القاهرة. تحصل على دبلوم علم النفس عن رسالته المعنونة " الإدراك الحسي عند

الغزالي"، ثم نال دكتوراه الحلقة الثانية جامعة الجزائر (قسم الفلسفة) "التعلم عند الغزالي"، كما تحصل على دكتوراه الدولة جامعة وهران (قسم الفلسفة) "فلسفة الثورة الجزائرية"¹. تقلد عدة مناصب من بينها :

-رئيس الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين بالقاهرة ،عضو اللجنة التنفيذية فيه 1962-1964، وموظف بالسفارة الجزائرية بالقاهرة ،مدير وكالة الأنباء الجزائرية بالقاهرة و المشرق العربي 1966-1972، رئيس لدائرة علم النفس وعلوم التربية 1972-1980، مدير معهد الفلسفة 1980-2000. كما شارك في عدة مؤتمرات دولية و وطنية².

2. علاقة الفلسفة بالثورة:

يعاد تعريف الفلسفة تقريبا في كل عصر وعلى أنحاء مختلفة، فهي من حيث اللفظ والدلالة المباشرة لكلمة فلسفة فهي مشتقة من اليونانية وأصلها (فيلا – صوفيا)، ومعناه محبة الحكمة³. فالفلسفة تتخذ موضوعات لها في المعرفة والوجود والقيم، وإذا أضيف لفظ الفلسفة إلى الموضوع دلّ على الدراسة النقدية لمبادئ هذا الموضوع وأصوله⁴.

فربط الفلسفة بالموضوع المراد البحث فيه والتدقيق، هو محاولة القيام بدراسة نقدية له، وكشف الأفكار والإلتباسات للتصورات القابعة ورائه، والملاحظ في كتاب البوخاري أنه يعيد تعريف الفلسفة وفق رؤية ثاقبة، مفادها ان الفلسفة هي النظرة المتميزة والنقدية للعالم أي الواقع، والهادفة بالتالي لا إلى مجرد تأمله، بل غلى إعادة صنعه من جديد⁵.

كما أنه يربط مفهوم الفلسفة La Philosophie بالواقع، من خلال مفهوم الثورة La Révolution، والتي تعني في الأساس كل حركة تؤدي إلى تغيير جذري في المجتمع دون عنف أو قهر⁶. يعرف البخاري مفهوم الثورة بأنها فكرة هادفة وعاملة على تجاوز الواقع، فغن مثل ذلك التجاوز لا يتحقق... إلا بعد تمثله، تمثلا كفيلا بتمكينها من اختراق معطياته الظاهرية، وصولا إلى النفاذ إلى الأسس الفكرية والنفسية والمادية التي يستند إليها ويستمد رسوخه واستمراره، لتقويضها ودحرها⁷. بما أن الثورة هي وليدة فكرة، فهي ليست فكرة عادية وإنما هي فكرة متميزة وهادفة، وما يميزها أنها انتقلت من مستوى التنظير إلى مجال التطبيق، وهذا ما جعل البخاري يربط ثورة نوفمبر بالفلسفة، وذلك لما أحدثته هذه الثورة من تجاوز الواقع الإستعماري وبعث الأمل في شعب كاد أن يندثر ثرائه وأصالته ومقوماته وقيمه وعرويته وإسلامه. فنجاح الثورة الجزائرية هو نجاح للوعي الشعبي الذي فهم ظروفه تماما وتفاعل مع واقعه، وأحدث تغييرا في عالمه. فالمنطلق الفكري للبخاري جعله ينظر إلى هذه الثورة من زاوية مختلفة، سعى فيها إلى ممارسة نفسية فلسفية متمحصة، بغية الولوج إلى حقيقتها ولبها وجوهرها، فهو يرى أن دراسة أي ثورة أو حادثة تاريخية أخرى، بعيدا عن الجذور الفكرية التي مهدت لها، وكانت وراءها هي دراسة جوفاء وغير مجدية، لسبب بسيط وهو أن كل تاريخ أيا كانت طبيعة أحداثه، بما فيها تلك التي تبدو لنا عشوائية، إنما هي وليد الفكر وقبل كل شيء⁸.

3. ارتباط الفكرة الوطنية بالوازع الديني:

يرجع البوخاري نشأة الفكرة الوطنية إلى العصور الأولى للجزائر، فموقعها الجغرافي، الإفريقي، المغربي، الإسلامي جعلها عرضة للغزو الأجنبي والحروب، فكانت أرضها وشعبها متشعب بالروح الحماسية لمواجهة أعدائه والدفاع عن هويته، وكانت فكرة تغيير وضعه حاضرة دائما في كيانه، ومن هنا لم تكن إذن فكرة نوفمبر بداية الفكرة الوطنية تماما كالثورة التي تجسدت من خلالها بل كانت بمثابة النتيجة الطبيعية لجهود فكرية وروحية وطنية متوالية تمتد وتضرب جذورها القريبة الى اليوم الأول للإحتلال الفرنسي للجزائر 1830 (...). تمتد وتضرب جذورها البعيدة في أعماق تاريخ الجزائر البعيدة⁹. كما أن دخول الإسلام إلى الجزائر يلعب دورا مهما في نشأة وظهور الفكرة الوطنية، لأن الجزائري بعد ان كان يدافع عن أرضه فقط، أصبح يدافع عن دينه مقابل حركة التنصير الإستعماري، فمعظم الحملات الإستعمارية كان لها أهداف ظاهرية و باطنية، ظاهرة مثل استنزاف الثروات وامتلاك البلاد، أما الباطنية كان هدفها نشر الدين المسيحي، إلى جانب ذلك يمثل الدين الإسلامي النواة الأولى التي قادت إلى السلام الداخلي وساعدته في رفض المساومات على هويته و ثرائه.

إضافة إلى ذلك يذهب البوخاري أبعد من ذلك حين يعلن أن جوهر القرآن ذاته هو الثورة، فالقرآن الكريم يؤمن بالتغيير الإيجابي الكلي، فإن القرآن هو ذاته ثورة، لأن القرآن جاء في شكله وفي مضمونه ثورة على الماضي وعلى الحاضر ودعوة صريحة وملحة للتغيير نحو الأفضل¹⁰.

فالثورات الجزائرية كانت مشبعة بالروح الدينية، ونابعة من أفكار مؤسسة ماضيا وحاضرا نحو مستقبل جيد، وهذا ما سيؤكدّه البوخاري في علاقة ثورة نوفمبر بالدين، لأن دخول فرنسا للجزائر كانت نتيجة تدهور الأسطول البحري الجزائري خاصة في معركة نفارين 1927، وهي الفترة التي كانت فيها البلاد تحت الحماية العثمانية.

فكان دخولهم للجزائر نتيجة للفساد والإنحلال والجهل الذي تفشى في حكومة حسين الداى، واتخذت فرنسا حادثة المروحة سببا لغزو الجزائر، وبمجرد دخولها بدأت تنهب في ثروات البلاد. فأدرك الجزائريون ضرورة تكثيف جهودهم لمقاومتها، فاندلعت عدة مقاومات في أرجاء عدة من البلاد، بقيادة كل من: الأمير عبد القادر – أحمد باي – الصديق ولد الشيخ – الشيخ بوزيان – الشيخ بوبغلة – لالة فاطيمة نسومر – المقراني – بوعمامة- وغيرهم. ولكن سرعان ما نجح الإستعمار في إخمادها وتطويقها¹¹. وبالرغم من ذلك إلا أن هاته الثورات نجحت في عرقلة تقدم الإحتلال وكسح أراضي البلاد، فبعدما أخمدت فرنسا نار الثورات انتهجت سياسات عديدة، من بينها تشجيع الهجرة والإستيطان، وتوفير كل شروط الراحة الملائمة للمستوطنين القادمين من مختلف أرجاء أوروبا، في مقابل سياسة التفجير والتكيل والقتل والإبادة للسكان المحليين.

4. تبلور الوعي إلى العمل الوطني:

شهدت الجزائر مطلع القرن 20 ظهور الحركة الوطنية في شكل أحزاب لها اتجاهات سياسية واصلاحية، تعكس اهتمامات الجزائريين وترفض السياسة الإستعمارية، وقد

اعتمدت النضال السياسي، وهناك نخبة شجعت العمل الحزبي ذات الطابع السياسي والإعلامي والنقابي، مثل الأمير خالد وجمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي كان هدفها هو الرجوع إلى تعاليم الدين الإسلامي الحنيف وإصلاح المجتمع، كما ركزت على الدفاع عن الشخصية الجزائرية والهوية والانتماء وإعلان عقيدة الإسلام¹². إلى جانب دعاة المساواة الشيوعيون والوطنيون المتعصبون.

يطرح البوخاري في كتابه أيضا الأزمة التي حلت على الحركة الوطنية، مما أدى إلى انقسامها وبروز قوة شبابية تؤمن بضرورة الكفاح المسلح، فتكونت "اللجنة الثورية للوحدة والعمل" في مارس 1954، وكان اجتماع مجموعة 22 النواة التي انفجرت منها ثورة نوفمبر المجيدة.

5. نوفمبر وفلسفته:

إن القارئ لكتاب فلسفة الثورة الجزائرية يدرك تماما الجهود الفكرية التي قام بها البوخاري في نقله البحث عن ثورة نوفمبر من قالبه التاريخي إلى قالب آخر وهو القالب الفلسفي، هذه الثورة التي نجحت في طرد فرنسا التي بقيت حتى اليوم مرتبطة تاريخيا بالجزائر وبثورتها، فنجاحها هو نجاح الفكرة الوطنية من أجل تغيير واقعها، واستعادة سيادتها الوطنية وبناء دولة قوية مستقلة.

في هذا الصدد يقول البوخاري: "أكدت فلسفة نوفمبر أن تلك الثورة التي جاءت مجسدة لها، والتي فاجأت الكثيرين، لم تكن حدثا مجانيا..أو عفويا بل كانت النهاية الطبيعية، الخاطفة والعنيفة، لنضال ظلت أجيال وأجيال من الشعب الجزائري تقوده ضد المستعمر"¹³.

يرجع البخاري نجاح ثورة نوفمبر عن غيرها من الفلسفات الثورية إلى خمسة أسباب:

1 - أصالة نظرتها للواقع الوطني، 2- وحدة القيادة، 3- توحيد الشعب الجزائري من خلال الكفاح المسلح، 4 النزعة الإنسانية والأخلاقية، 5- الإلتزام بالمشروط بكل قضايا الحرية في العالم¹⁴.

كل هاته الأسباب عبرت عن الواقع المزري للشعب الجزائري وآلامه، فتنمخض عنها ثورة مجيدة قادته نحو الإستقلال، وإرتقت به فوق التشاؤمية ووحدت قياداته من أجل هدف واحد، وحققت الاندماج الحاصل بين الشعب والثورة، لتكذب مزاعم فرنسا باستحالة خروجها وبقدرتها على السيطرة.

هكذا نستنتج أن البخاري كأحد أقطاب الفكر الجزائري المعاصر، استطاع ترسيخ ثورة نوفمبر في العقول الآنية والمستقبيلة من خلال رؤيته الفكرية والنقدية لهذه الثورة

هوامش:

1. انظر إلى: <http://philo-ethique.elafdal.net/t150-topic>.
2. نفس المرجع
3. جميل صليبا- المعجم الفلسفي - ج 01 - دار الكتاب اللبناني - بيروت، لبنان - د.ط - 1982 - ص 160
4. نفس المرجع - ص 162
5. البخاري حمادة - فلسفة الثورة الجزائرية - منشورات مخبر الأبعاد القيمية بالجزائر - دار الغرب للنشر و التوزيع- وهران- الجزائر - ط 1 - 2005 - 31
6. جميل صليبا - ص 382
7. البخاري حمادة - ص 13، 14
8. نفس المرجع - ص 53
9. نفس المرجع - ص 54
10. بوعرفة عبد القادر- جدلية الثورة والتغيير في القرآن في فلسفة البخاري حمادة - منتديات تخاطب ta5atub.com - فبراير 2013.

11. البخاري حمادة – انظر ص 58....ص61
12. نفس المرجع – ص 69
13. نفس المرجع – ص 219
14. نفس المرجع – انظر ص 218...ص 228